

دلالة المكان في المجموعة الشعرية "من عمق الجرح يا فلسطين" للشاعر: محمد الأخضر عبد القادر السائحي

The significance of the place in the poetry collection "From the depth of the wound, O Palestine" by the poet: Muhammad al-Akhdar Abdul Qadir al-Saaihi

عبد الكريم اروينة¹، محمد فورار بن لخضر²

¹ جامعة محمد خيضر بسكرة (الجزائر)، abdelkarim.rouina@univ-biskra.dz

² جامعة محمد خيضر بسكرة (الجزائر)، m.fourar@univ-biskra.dz

تاريخ الاستلام: 2023/03/10 تاريخ القبول: 2023/04/11 تاريخ النشر: 2023/12/10

ملخص: تتسم المجموعة الشعرية (من عمق الجرح يا فلسطين) للشاعر الجزائري ؛ محمد الأخضر عبد القادر السائحي بحشد عديد الأماكن ، وبخاصة أسماء المدن العربية والأقاليم والتضاريس المشيرة إليها ، ما يدفع القارئ إلى محاولة فهم هذا الألاح على إيراد أسماء الأماكن في المدونة، فالشاعر ينتقل من الجزائر إلى تونس إلى مكة وفلسطين ولبنان والعراق واليمن والجولان.. ولا تكاد قصيدة تخلو من هذا المظهر الموضوعي في نسج النصوص المتنوعة ، لتصور لنا بعدين رئيسيين يجعلان المكان-المدينة ، يتوارد باللاح؛ فأما أحدهما فهو قدرة أسماء الأماكن العربية والمدن على تمثيل هوية الشاعر وتصويرها، وأما الثاني فهو ارتباط هذه الأسماء والأمكنة عامة بمعاني الألم والمعاناة المشتركة لأقطار الأمة العربية ، وذلك ما كانت تستهدفه المجموعة الشعرية في مجمل نصوصها.

كلمات مفتاحية: المكان؛ المدينة؛ الشعر الجزائري؛ فلسطين.

Abstract:

The poetic collection (From the depth of the wound, O Palestine) by the Algerian poet is characterized by; Muhammed al-AkhdarAbd al-Qadir al-Saihi mobilizes many places, especially the names of Arab cities, regions, and terrain referred to, which prompts the reader to try to understand this insistence on listing the names of places in the blog. The poet moves from Algeria to Tunisia to Mecca, Palestine, Lebanon, Iraq, Yemen, and the Golan..and hardly A poem devoid of this objective appearance in the weaving of various texts, to depict for us two main dimensions that make the place-the city appear insistently. The Arab nation, and this is what the poetic group was targeting in all its texts.

Keywords: place; City; Algerian poetry; Palestine.

المؤلف المرسل: عبد الكريم اروينة، الإيميل: abdelkarim.rouina@univ-biskra.dz.

1. مقدمة:

يبدو لمن يطالع المجموعة الشعرية (من عمق الجرح يا فلسطين) للشاعر الجزائري ؛ المجد الأخضر عبد القادر السائحي جنوحها للثورة حتى لكأن حرب التحرير لم تضع أوزارها بعد، بل إن هذه المدونة تضع القارئ في هيب المعركة، لأن فلسطين «كانت ومازالت من القضايا الأساسية التي تعطي لها الأولوية، لأنها قضية كل عربي أيا كان» (دقياني، د ت، صفحة 163) ودوي قنابلها ومدافعها لما تحويه القصائد من ألفاظ قوية طافحة بمعاني النضال ودلالات الكفاح المرير، والتضحيات الجسام ، فهي تظهر متأججة المشاعر حارة اللفظ والتعبير معا «كانت الكلمة عنده تحمل رائحة الثورة بمفاهيمها (النضالي، الاجتماعي، السياسي..) وتتعدى إلى المفهوم الإنساني» (دوغان، 1989، صفحة 155).

ومن الملاحظات الجديرة بالتأمل والتوقف عندها في هذه المجموعة التي -لا تتجاوز عشرين قصيدة كتبت معظم نصوصها على نمط (التفعيلة) ، بعد الاستقلال- حضور أسماء الأماكن في غالبية النصوص بشكل لحوح ، خاصة ما يتعلق بأسماء المدن العربية والأقاليم والتضاريس المشيرة إليها ، ما يدفع القارئ إلى محاولة رصد حدود الجغرافيا الوجدانية وأبعادها الدلالية الكامنة وراء الجغرافيا الطبيعية ؛ فمن الجزائر إلى تونس إلى مصر إلى مكة وفلسطين ولبنان والعراق واليمن والجزولان.. تتحرك الآلة الفنية للشاعر في نسج نصوصها المتنوعة ، الأمر الذي يدعو إلى التساؤل في حقيقة التوارد الكثيف للأمكنة ، وأسماء المدن العربية التي تتوزع على مجمل قصائد المجموعة. والتي تلفت الانتباه إلى مدلولات عامة يساهم المكان في تأكيدها عندما تتضافر والعوامل الفنية الأخرى.

2. المدن العربية؛ تمثيل هوية الشاعر:

إنّ تحول الشاعر بين المدن العربية التي يوردها في قصائد المجموعة (في نص واحد أو عدة نصوص)، إنما يعبر عن تكاملية الأماكن الصانعة لوطن الشاعر ، وهو الوطن العربي عامة ، حتى وإن كان الشاعر يعالجها وطنيا محليا..أو كان بصدد الحديث عن الثورة الجزائرية أو بعض أحداثها ؛ «وقد صرح الشاعر في مقابلة أجرتها معه الشاعرة الجزائرية (فهيمة الطويل) قائلاً(الشعر الجزائري يقف مع الشعر الفلسطيني في

طليلة قافلة الشعر المدافع عن الحرية والمستमित في سبيل قضية الجماهير المحرومة)»(دوغان، 1989، صفحة 158).

كما يظهر في قصيدة (دماء) حين يأخذ الشاعر في خطاب <<الغرب>> المجرم واصفا ضياع الحق العربي(السائحي، 1983، الصفحات 13 - 14):

-
- والضحايا
- كيف ماتوا ؟
- حشدوا صفا وماتوا..
- هكذا مثل السبايا..
- أيساوون حياة..
- لا، ولا حتى بقايا
- بل ولا حتى رفاة
- هكذا ضاعت فلسطين الحبيبة
- وشباب في العراق الحر مات
- هكذا أمس العروبة
- لا تعي حتى الشكاة

حتى يقول:(السائحي، 1983، صفحة 15)

- ذاك ماض
- قد طوانا وطوى حتى أسانا
- ثم ثرنا
- ودوى في أذن الغرب الرصاص
- فتعامى ، وتعامى كله عما طلبنا

- فوعينا ، وطغت في الشرق نيران القصاص
 - أي جور ، أي عار وجنون
 - قد أتاها الغرب <غرب العظما> للاقتصاص
 - أبدا لن يستطيع اليوم قهر الثائرين
 - بدما أبطال أوراس لأرض العرب الخلاص.
- والقصيدة مؤرخة بتونس 1958... أي في شدة احتدام معركة التحرير الوطنية، ما يكشف عن قوة البعد القومي في وجدان الشاعر الذي يؤلمه الدم العربي في كل مكان - وإن كانت بلاده (الجزائر) مسرحا لمذبحة كبرى ترتكبها أكبر آلة استدمارية معاصرة - فالشاعر مابرج يذكر فلسطين والعراق من أقطار العروبة وقد سالت دماء أبطالنا غزيرة زكية في وطن الشاعر (أوراس)، لتكون تأرا وقصا عادلا لكل ظلم لحق بأرض العرب، التي لم تكن- يوما - في مخيال الشاعر وحاسته الوجدانية، إلا أرضا موحدة، وحدها الدم والنضال كما وحدها التاريخ العريق واللسان والمصير المشترك والشعور بالألم والمعاناة، تصديقا لما قاله أحمد شوقي في قصيدته <نكبة دمشق> (شوقي، د ت، صفحة 215).

نصحت ونحن مختلفون دارا *** ولكن كلنا في الهم شرق
ويجمعنا إذا اختلفت بلاد *** بيان غير مختلف ، ونطق.

أما في قصيدته (الكلم الحرام) والتي كتبها على ما يبدو عقب حادثة حرق الصهاينة المسجد الأقصى عام 1969، فتراه يبدأ النص حزينا موعلا في الحزن، غارقا في الألم: (السائي، 1983، صفحة 23)

- لو كنت أدري
- من أنا لتفجرت روجي
- شظايا من لهب
- بين الدروب
- في القدس
- في النيل الحزين

- في قمة
- مأسورة خلف الأنين
- في دمعة
- تشكو اليهود
- في منعرج
- يئن من الجمود
- الشاعر في منتهى الألم يكاد ينفجر من الحزن.. مما يجعله يغتلي ثورة على واقع أمتة الممثلة في النص
- في الأماكن (القدس، النيل الحزين، قمة مأسورة (كناية عن الجولان المحتل))..حتى إن هذه الثورة توشك
- أن تصير إعصارا مدمرا يأتي على كل شيء لتغيير هذا الواقع المخزي:(السائحي، 1983، الصفحات 26 - 27):
- لو كنت أدري
- من أنا
- لنفخت من شعري رعودا أو حديد
- ومضارب الأمس الشهيد
- ليثور من جبل الخلود
- بركان (عاصفة)
- على الأرض السلبية
- يهتز في إعصارها
- أمل العروبة
- حتى يقول:(السائحي، 1983، صفحة 31)
- في ثورة نطوي بها العهد البليد
- لتضيئ في العرب القلوب
- ويردد الإنسان في وطني

- نشيد الحب

- في أمن حبيب

نعم، كل تلك المدن الموزعة في الأمصار شرقا وغربا، إنما هي وطن الشاعر المعبر عن نفسه في ضمير الباء دلالة على المتكلم وقد أضاف الوطن إلى نفسه (وطني). لأن الشاعر الجزائري - كما يقول عبد الله الركيبي - : «لا يتحدث عن فلسطين كأجنبي ، أو كإنسان ينظر إليها من بعيد يشارك بعواطفه ووجدانه، وإنما يتحدث عن فلسطين كواحد من أبنائها» (الركيبي، 2009، صفحة 91) ويتأكد ذلك في نتاج الشعراء الجزائريين المعاصرين لحرب التحرير ، ذلك أنه «مع اندلاع الثورة أصبح الشاعر الجزائري أكثر من ذي قبل تغنيا بعروبتة والتغني بالعروبة هاهنا يأخذ صبغة سياسية سيمتها التحدي والتأكيد على أصالة الشعب الجزائري.» (شعباني، د ت، صفحة 98) وانتمائه لهذه الأمة العربية الكبرى .

ويعود الأمر ليتكرر مجددا في قصيدة أخرى تحمل عنوان (رسالة من شهيد)، يصر الشاعر فيها أن يجعل أقطار العروبة وطنا واحد ، ويرفض فصلها: (السائي، 1983، صفحة 33)

- رسالتي

- إليك يا أخي الحبيب

- في جنة الأوراس أو في جرجرة

- رسالتي أنشودة إلى الشعوب

- لأنها من ثورة مظفرة

هاهو الشاعر يستنطق (الشهيد) بوصفه رمزا مقدسا ، يمثل أعلى صور الفداء و التضحية في سبيل العقيدة والوطن. هذا الشهيد الذي راح يبلغ رسالة من عمق الجزائر الثائرة (الأوراس - جرجرة) إلى كل أخ في الكفاح من أجل تحرير الشعوب المضطهدة: (السائي، 1983، صفحة 34)

- رسالتي

- أخطها إلى أخي

- في كل أرض حرة أو ثائرة

- إليك أنت يا أخي
 - في ثورة التحرير روح طاهرة
 - لأنها من الدماء مدادها
 - ومن جباه الشهداء رقها
 - لأنها (نغمير) ميلادها
 - وعيدها، فكيف يخفى حقيها؟
- هذه الرسالة عبارة عن تحية صادقة تتضوع عطر الشهادة المقدس: (السانحي، 1983، الصفحات 35 - 36)
- تحية
 - عبيرها مسك وطيب
 - ضمخها الشهيد حينما استراح
 - * * *
 - نسكبها
 - على الدماء والدموع
 - في المسجد الأقصى الحزين المستكين
 - نسكبها
 - في مآتم الجموع
 - في مهبط الصلاة ، في المجرى الحزين
 - تحية إلى الجراح النازفة
 - في قمة الجبال
 - في قلب الصحاري
 - تحية
 - إلى الجموع الزاحفة

- في القدس، في يافا ، وفي كل الديار

ليختم هذه الرسالة العظيمة بنصيحة كبرى تلخص وصية الشهيد المقدسة: (السائي، 1983، صفحة 39)

- رسالتي

- إلى جميع الثائرين

- أن يرفعوا لواء وحدة العروبة

وكأني بالشاعر يستلهم نشيد ابن باديس: (مرتاض، 2007، صفحة 70)

شعب الجزائر مسلم * وإلى العروبة ينتسب**

يوم عبر رائد النهضة الجزائرية الحديثة نيابة عن الأمة الجزائرية ،رفضها القاطع الصريح إدماجها في فرنسا، ويقتفي أثره وهو يعلن في صيحته المدوية الخالدة: (مرتاض، 2007، صفحة 79)

وإذا هلكت فصيحتي ؛ * تحيا الجزائر والعرب**

إن الشاعر لا يستطيع أن يتصور المدائن العربية إلا أجزاء من كل ، فكل مدينة عربية - مهما تكن خصوصيتها- ما هي إلا عضو من هذا الجسد العظيم ، إذا أنت واحدتها أو تألمت ، تداعى لها سائر الجسد بالسهر والحمى تصديقا لحديث المصطفى - ﷺ - ... وهو مانجده عند أكثر من شاعر جزائري؛ كما عند أبي القاسم خمارالذي يؤكد بعد النكسة ؛«بأن الهزيمة لن تؤثر على تصميم العرب على استرجاع فلسطين وعلى الانتصار: (الركيبي ع.، 1997، صفحة 83).

- لا لن نرتضي عارا جديدا في فلسطين السليبية

- لا..لن يداس المسجد الأقصى وأردنا الحبيبة

- وثرى دمشق، معاقل الابطال، جبهتنا المهيبة

- كالسيل نقتحم الجحيم، كتيبة تتلو كتيبة

- ومن المحيط إلى الخليج..دماؤنا حمى رهيبة

- أرواحنا، غن لم نعش للنصر، ندفعها ضريبة»

وينتقل الشاعر في قصيدته ؛ (الأخطبوط) إلى إعلان الثورة على كل أشكال التخلف والتخبط في وحل الشرور، وهو يوجه خطابه فيها إلى كل بلاده العربية: (السائحي، 1983، الصفحات 53 - 54)

- يا بلادي،
- ذكرياتي
- أكل الوحش سناها
- قبل أن تغشى بلادي
- ثورة تقضي على كل ضغينة:
- في العراق
- في مسار النيل
- في كل السواقي
- في قناة الدم والدمع الدفينة
- في روابي الشام
- في القدس الحزينة
- في جنوب اليمن الميمون
- في كل شمال
- في خليج لم يزل منبع النضال
- في ذرى الأطلس
- في مكة
- في كل مدينة.

هنا تتساوى المدن المعبرة عن الأمصار ، والمثلة للأقطار ؛ فكلها أرض الشاعر وأرض انتمائه البعيد، أرض أجداده وأمجاده، ذلك أن؛ «المدن العربية امتداد عضوي لمجتمع شرقي عريق ، ومرآة لواقع حضاري واحد، يتجذر في ذاكرة الأمة العربية الإسلامية على مدى قرون طوال ، ويقيم في أعماق العربي

عقيدة راسخة لا تتزعزع أو تندثر مهما تكاثرت الحدود الجمركية» (رماني، 2001، صفحة 227). وعلى هذا يكون منطق الانتقال في ذكر هذه المدن وإيرادها غير منطق الجغرافيا ولا منطق حساب المساحات ولا منطق السياسة — إنه منطق يرتبط بوجودان الشاعر ومهجته العاشقة لكل شبر من أرض العروبة الواحدة الموحدة في تصور الشاعر ورؤياه للوطن الكبير، وإن كان الواقع المر يحيل على حقيقة الحدود المفككة لأرض العروبة.

3. المدينة؛ صورة الجرح الغائر في جسد الأمة

تتمحور أكثر نصوص المجموعة الشعرية؛ (من عمق الجرح يا فلسطين) حول قضية العرب والمسلمين الأولى؛ قضية فلسطين السلبية، غير أن المتن الشعري للنصوص الواردة في مجموعة السائحي الصغير، يحشد عددا هائلا من أسماء المدن والأقاليم والتضاريس التي تتوزع على خارطة الوطن العربي الكبير، وإيراد أسماء هذه المدن يأتي . غالبا . مقرونا بأوصاف الألم والحزن ودلالات والمعاناة والأسى.. حتى لتكاد أن تكون هذه الخاصية قاعدة مضبوطة مطردة في المتن الشعري.. لتكون — في النهاية — وجوها عديدة ومرادفات كثيرة لمعنى واحد، وصورا شتى لمعاناة كبرى هي فلسطين. وهنا تصبح المدينة العربية صورة أخرى لكل مدينة فلسطينية تعاني الاحتلال والسلب... بل تصبح المدن العربية معادلا موضوعيا يعبر عن كل فلسطين، كما في قصيدة: (بكاء بلا دموع) (السائحي، 1983، صفحة 99):

- لبنان
- ما انحدرت
- على خديك دمعة شاعر
- إلا ليغل قلبك الشلال..
- حتى يقول (السائحي، 1983، صفحة 102):
- لبنان
- يا بيروت
- جرحك لم يكن جرح الأسى
- جرح التخاذل

- طعنة ملعونة..
 - حتى يخلص إلى القول(السائحي، 1983، صفحة 104) :
 - والخزي يتبع ظلنا
 - كاللعنة المغروسة الأظفار
 - في « عمان »
 - في « الظهران »
 - في الحكم
 - في الحق الجريح
 - على ثرى أرض العروبة
 - يا فلسطين الحبيبة
 - يا فلسطين السليبية
 - يا فلسطين التي
 - عرت قذارتنا
- وهكذا فالألم والحزن مرتبطان بالمدينة العربية حيث ذكرت (دمعة، يغل، جرحك،
الأسى، طعنة، الخزي، اللعنة، المغروسة الأظفار، الجريح، السليبية، قذارتنا).
والمدينة العربية تحيل إلى فلسطين، أي انها تحيل على الألم وتوصلك إليه حتما؛ الشيء الذي يجعل
الشاعر في معاناة مستمرة بسبب هذا التوارد الذي يحيي الذاكرة باستمرار ويغذيها بما يجدد عليه
المواقع.. فكلما عن حادث في مدينة عربية إلا وربط تلك المدينة بصورة من صور الحزن أو الألم ، اللذين
يحيلان مباشرة على معاناة فلسطين.. مما يزيد في لهيب الحرقه ولا يتيح للشاعر برهة نسيان، ولو كان
نسيانا مؤقتا، يقول عبد القادر السائحي(السائحي، 1983، الصفحات 23 - 24):

- لو كنت أدري
- من أنا
- لتفجرت روحي
- شظايا من لهيب
- بين الدروب

- في القدس
- في النيل
- في قمة
- مأسورة خلف الأنين
- في دمعة تشكو اليهود
- في كل منعرج يئن من الجمود
- فتري العيون
- من الأسى لاتستبين
- وترى القلوب
- من الهوان بلا حنين
- حتى إذا غشي اللهيب
- حصد الصبح
- خطى النحيب

فمعجم الشاعر . في هذا المقطع . حافل بألفاظ المعاناة والألم والحزن؛ (تفجرت ، روجي، الحزين، مأسورة، الأنين، دمعه، الأسى، لا تستبين، بلا حنين، النحيب) مما يعكس الارتباط الوثيق للأماكن والمدن العربية باستمرار أوجاع الأمة ومعاناة شعوبها المقهورة السليبية حقوقها. وهذا ما يتجلى واضحا في نص آخر(السائح، 1983، صفحة 52):

- أي بلادي
 - كيفما سارت خطاي
 - في محيط أو خليج
 - لم أجد إلا السؤال المريبكي
- وحتى عندما يستعيد الشاعر (ذكرى عبد الحميد ابن باديس) ، لا يفوته أن يعرج على مآسي البلاد العربية وما اعتراها من استبداد وتخلف لعهود طوال(السائح، 1983، صفحة 10):
- زحف اليأس عاتيا مستبدا *** واحتوى الأنفس الدجي والفناء
 - فمضت أمة الأعارب شتى *** كالشظايا تريشها الأهواء

- **عراق ومكة، وشآم***** وبمان ، وبربر ما تشاء
 - فرقة مرة جناها الغباء *** ورمتها القطيعة الرعناء
 - فرقة لم تزل ضحيتها ترسل *** لحنا يموج فيه البكاء
 - فرقة كم..وكم لها من ضحايا *** فلذات جريحة أنكاء
- إن الأمصار والمدن التي يذكرها الشاعر(العراق ، ومكة ، والشام واليمن والجزائر مشارا إليها بقوله (بربر) . وهي عينات وأجزاء لكيان واحد هو الوطن العربي الكبير. إنها تمثل مجموعة مرايا تعكس بصدق معاناة الأمة ؛ (زحف اليأس عاتيا مستبدا) فهي تعبر عن الحال الأليمة التي وصلتها أرض العرب ، وهذا ما يصوره معجم الشاعر في قصيدته بكل وضوح ؛ (الدجى ، الفناء ، شظايا ، فرقة ، الغباء ، القطيعة ، ضحيتها ، البكاء ، فلذات ، جريحة ، أنكاء).مما يؤكد مرة أخرى قوة هذا التواصل والترابط بين أطراف الأرض العربية وإن كان رابطته — هذه المرة — هو الألم المشترك والمعاناة الموحدة.

4. خاتمة:

بعد هذا التطواف السريع بقصائد المجموعة الشعرية (من عمق الجرح يا فلسطين) للشاعر الجزائري مُجد الأخضر عبد القادر السائحي - يمكن القول : إن حضور فلسطين - خاصة - كان حضورا قويا في وجدان الشاعر انعكس في مخياله الشعري ونتاجه الأدبي بقوة وجلاء ، إضافة إلى حضور الأقطار العربية ممثلة في أسماء المدن والأمكنة ؛ مما يؤكد على قوة الأصرة التي تربط الشاعر الجزائري بوطنه الأكبر والقضايا الكبرى لأمتة العريقة.

5. قائمة المراجع:

- (1) إبراهيم رماني. (2001). المدينة في الشعر العربي - الجزائر نموذجا "1925 - 1962"، ط2. الجزائر: دار هومة للنشر والطباعة والتوزيع.
- (2) أحمد دوغان. (1989). شخصيات من الأدب الجزائري المعاصر. الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب.
- (3) أحمد شوقي. (د ت). سلسلة الشعراء العرب، مج2. بيروت - لبنان: دار المركز الثقافي اللبناني.
- (4) الوناس شعباني. (د ت). تطور الشعر الجزائري من سنة 1945 حتى سنة 1980. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية الجزائرية.
- (5) عبد الله الركيبي. (2009). فلسطين في الأدب الجزائري الحديث. الجزائر: دار الكتاب العربي.
- (6) عبد الله خليفة الركيبي. (1997). قضايا عربية في الشعر الجزائري المعاصر. ليبيا، تونس: الدار العربية للكتاب.
- (7) عبد المالك مرتاض. (2007). معجم الشعراء الجزائريين في القرن العشرين. الجزائر: دار هومة للطباعة والتوزيع.
- (8) عبد المجيد دقياني. (د ت). الالتزام في شعر مُجد بلقاسم خمار. بسكرة - الجزائر: دار علي بن زيد للطباعة والنشر.
- (9) مُجد الأخضر عبد القادر السائحي. (1983). من عمق الجرح يا فلسطين. الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.